

2- بين بصرة المشرق وبصرة المغرب

الاستاذ: عبد العزز بن عبد الله

الاستاذ في جامعتي التروين و محمد الخامس
عضو اكاديمية الملكة المغربية و مجامع
 بغداد و عمان و الهند

بعد نحو اربعين كلم من المرجة الزرقاء او مولاي بوسليمان التي سمهاها (ابن حوقل) بحيرة (ارياق) (المسالك - طبعة ليد 1873 ص 56) ووصفتها (ياتوت) ملاحظا أنها مربط للراكب على بعد مرحلة من ناس (مراميد الاطلاع على أسماء الاماكنة والبقاع) (خمسة اجزاء - ليد - 1852 - 1869 م/م 131 ص) وكانت مرسي للبصرة من حيث ينتقل اهلها السلم وكذلك أهل مدينة (بياتة) وهي (كورت) او حدة كورت التي يسمىها ابن خلدون (بياتة).

ولعلها بنيت مع أميلا على يد المولى ادريس الثاني كمصطاف على ما يلوح للملوك الادارسة وانضمت الى مملكة طنجة تحت امرة القاسم ثم صارت حوالى 347هـ / 958 م ابان غزو جوهر الصقلي للمغرب عاصمة دويلة ادريسية صغرى تقاوم الزحف الشيعي مثل بصرة الشرق وتشمل الريف وغمارة بامارة (الحسن بن كنون) ثم استولى عليها (الحكم الثاني) ملك قرطبة عام 363 هـ / 973 م واستمر بها بعد ذلك (يحيى بن حمدون) قبل ان يطرده منها (بلقين بن زيري) الذي هدم معالمها وقد تحدث كل من ابن حوقل والبكرى في القرنين الرابع والخامس عن ابوابها وحماماتها وجامعها وحدائقها ومراعيها ومزارع القمح والقطن بها خلافاً للمقدسى الذي وصف انقاضها (ترجمة «ميلا» ص 27).

ان بصرة المشرق بالعراق وبصرة الغرب في اقصى
غرب الشمال الافريقي المطل على المحيط الاطلنطيكي
— تعتبران الطرفين الاساسيين في المسار التاريخي
الذى وحد العربية من الخليج الى المحيط ..

وقد كانت بصرة العراق أول معسكر إسلامي في غرب (الأبلة) (١) ومركزًا حضاريا هاما نظراً لثرائه وموقعه الجغرافي الذي ساعده على الاحتكاك بالحضارات المختلفة حيث بُرز كصلة وصل بين الكثير منها في الشرق والغرب وكانت مهبطاً لرواد العلم والتجارة تجتمع في رحابه نصف مليون نسمة، وكان من رجالاتها الإمامذاذ الذين أثروا الفكر العربي وتركوا بصمات في المغرب والأندلس الحسن البصري والجاحظ وسيبوه والفراهيدي والآخرش (٢). وواصل بن عطاء المعتزلي وقد ظلت مركزاً فكرياً وحضارياً إلى تأسيس بغداد فكانت منطلقاً للصراع بين الإمام على بن أبي طالب وخصومه ولكنها احتفظت بطبعها السندي بينما أمست مدينة الكوفة شيعية النزعة وقد اكتسحها الترامطة عام ٣١١ هـ / ٩٢٣ م وانهارت كثير من مصالحها وأواخر القرن الخامس، وهكذا ظلت أربعة قرون مركزاً تجارياً وصناعياً ونلاحظها تتدحر إليها القوافل من حواضر العالم العربي والإسلامي وكان ميناؤها النمرى مربطاً ومرسى للسفن ذات الحمولة الصغرى، أما بصرة المغرب فهي مدينة إدريسية تقع على

١) هي غير الإبلة Avila الواقعة شمالى مدريد (على بعد 113 كم منها) ومنها أبو عبد الله الألبى، شيخ ابن خلدون (المن بالامة لain صاحب الصلاة ص 380) .

2) ماحب سیوه (حسب المرد) - مجالس العلماء ص 163) .

ونكر (ابن حوقل) ان بينها وبين « الاتلام » اقل من مرحلة ومن « نشمس » كذلك وللذكرى بين ناس والبصرة اربعة ايام (معجم البلدان ج. 4 ص. 440) مهل البصرة هي (باتناسا) او *Valentia* ؟ (بلاد المغرب للذكرى - طبعة الجزائر 1911 مي 111 / معجم البلدان (مادة بصرة) .

(البصرة عاصمة الادارسة ومرساهما) .

(المدن الاسلامية بافريقيا الشمالية) — احمد المكتنasi ص 9 / وصف افريقيا للادرسي ص. 109 / تاريخ ابن خلدون ج. 6 ص. 156 .

(البيان المغرب) ج. 1 ص. 133 و 330 /

(الحل السنديبة) ج. 1 ص. 66 .

واكد ابن حوقل انه منذ القرن الثالث الهجري اصبحت الوسائل موصولة بين المغرب والأندلس من جهة والشرق من جهة اخرى عن طريق القوافل التي كانت تتحدر من قرطبة لتمر ببصيرة المغرب ثم سجلamasة منتطلقا عبر شواطئه (بحر القلزم) الى اليمن ثم الخليج وبصيرة العراق ثم بغداد .

وكان هذا المسار الاقتصادي بين البصرين موقعا لكثير من الابارات التي سبقت الفكر المعاصر من ذلك ما حكاه ابن حوقل (المسالك والمالك ص 70) انه رأى « صكا » فيه ذكر حق على رجل من اهل سجلamasة لرجل اخر من اهلاها باريمن الف « دينار » ثم قال : « وما سمعت بالشرق لهذه الحكاية نظيرا ولقد اخبرت بها بخراسان والعراق فاستظرفت » .

وقد عرفت بصيرة المغرب رجالات اذ اذا طبق صيتها الشمالي الافريقي امثال محمد المكتنasi الذي صنف اعظم نهرس عرفه المغاربية في نحو اربعين كراسة وسعيد بن خلف الله بن ادريس بن سليمان الزناتي البصري (المدارك ص. 333) وعثمان بن سعيد بن حمادة البصري (ص. 333) وابراهيم بن احمد السبتي ويحيى بن خلف السبتي الصدفي البصري (ابن الفرضي ج 2 ص 61) والعربي بصرى « 1148 هـ » (تاريخ الصعييف ص. 110 خ) وعمران بن عبد الله العمري البصري .

وقد حدثنا ابن حوقل عن (وادي سند) وهو (اللوكوس) وعن رانديه الوارد احدهما من « دنهاجة » والاخر من ناحية البصرة كما تحدث البكري عن البصرة نذكر أنها كانت تسمى (الحمراء) في عهده محاطة بسور يعشرة ابواب ومسجد وحمامين ومواواها غير قراح وفيها نفن القاسم الادريسي وخلياؤه ابراهيم والحسين والقاسم وقد استوطنت المدينة غالباً اندلسية وهكذا يظهر ان بلقين لم يهدم المدينة تماماً وإنما قوض اسوارها لاتها لم تعد مدينة محصنة ولكن التجارة ظلت مزدهرة بقطنها وكتانها ووراثت مبناء العرائش مرسى سيدى بوسلام و قد أشار (ياقوت) (من 157) الى أنها أصبحت مهدمة في عصره كما اعطانا « ابن عذاري » لاتحة عن حكام البصرة كعاصمة امريكية . وفي القرن العاشر وصفها الحسن الوزان كحاضرة متوسطة المساحة من الفن « كانون » (كتابة عن العائلة الواحدة ومعنى المطبع) كما وصف « مارمول » بعد ذلك جدرانها المهدمة ويتلها تصورها ومساجدها (ج 2 من 215) وهي بالنسبة لها مصطفى امراء ناس أما (تيسو) (Tissot) فإنه لم يجد فيها في القرن الماضي سوى أحجار منتشرة فوق الأرض وهي تقوم الآن على بعد 18 كلم شمالي شرق (سوق ارباع الفرب) بسورها الحجري وحده بعد ان انمحط نهايتها منذ القرن الثاني عشر الميلادي .

وتعرف ببصيرة الكتان لأنهم كانوا يتبايعون في بدء أمرها في أكثر تجاراتهم بالكتان وتعرف أيضاً بالحمراء لأنها حمراء التراب وكان سورها مبنياً بالحجارة والطوب ولها عشرة ابواب وللجامع سبع بيوتات وبها حمامان كبيران . . . ونساء البصرة مخصوصات بالجمال الفائق والحسن الرائق ليس بارض المغرب اجمل منهن .. واسست في الوقت الذي أسست فيه (ازيلا) او قريباً منه ومنها الى (قصر كاتمة) وهو « قصر عبد الكريم » مرحلة ومنها الى مدينة (جنبار) مرحلة وتقبل أنها كانت قرية على (وادي سبو) (البيان لابن عذاري ج 1 ص 133 - 134) .

وهادم البصرة هو ابو الفتوح صاحب افريقيية من قبل المعزيز بالله عام 368 هـ (البيان ج 1 ص. 330) مما رسمها بعد طول مدتها وكثره عمارتها لم يعوزه من بلاد المغرب سوى سبعة وسبعين عمارة عظيمة بالأندلس والبربر (من 330) .

والاخنث الاندلسي هو أبو الاصبع عبد العزيز بن احمد المغربي النحوى روى عنه ابن عبد البر كان حيا عام 309 هـ (تاريخ الاندلس للحميدى) (بقية الوعاء من 307) .

والاخنث اليلنسي أبو القاسم خلف بن عمر الشقرى (المزهر ج 2 ص 454) .

ونختم بنوذج آخر كان له اوسع الاتر واعمه في الديار المغربية هو الاستاذ سيبويه فقد اهتم المغرب والاندلس بسيبوهه و كتابه ك مصدر من ابرز مصادر علم النحو في اللغة العربية ويهمنا في هذا البحث خاصة ان تيز مدی تفاعل سيبويه مع نحاة المغرب والحركة القوية التي هزت رحاب هذا العنصر الحيوى من علوم الآلة العربية وقد يضيق نطاق هذه المجالة اذا حاولنا تتبع نشاط اعمدة هذه الحركة .

واذا كان القرن الرابع الهجرى قد بدأ يمتاز بنوع من الفنية المصطنعة ابعته تدريجيا عن سلطة القرون الثلاثة الاول فان جانب الشكليات في النحو امسى اشد طغيانا الى حد ان هذا العلم اصبح يعتبر هنا في ذاته لامجرد وسيلة لتقسيم اللسان من اود اللحن وتم ظهر في هذا القرن ابو القاسم ابراهيم بن عثمان ابن الوزان (4) شيخ المغرب في النحو واللغة القروانى الاصل الذى لم يبدع جديدا في هذا المجال وانما بزر في « حفظ » كتاب سيبويه والمصنف الغريب وكتاب العين وغيره كما ظهر في نفس الفترة ابو بكر محمد ابن الحسن الزبيدي الاشبيلي (5) فحاول تحقيق نوع من التوضيح والتيسير لمعتقدات النحو في كتابه « الواضح في النحو » (6) وكانت انتقاداته لفaiتين اثنتين يستهدف كلها تقسيم اللسان عن طريق اصلاح اللغة والنحو ولذلك كان كتابه « لحن العوام » اول محاولة في المغرب والاندلس لتبسيط المقول مبني ومعنى . ولم يخل هذا

وخصة بنت السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام العلوى التى كانت تقرأ القرآن برواية البصرى بالإضافة الى قراءة (ورش) التى كان يتقنها الكثيرون .

وقد حظيت (بصرة الشرق) بدراسات مغربية تبلورت فيما كتب عن البصرة ورجالاتها منها :

1) (كتاب النصرة في تحقيق قراءة امام البصرة) لعبد الرحمن ابن القاضى (1082 هـ / 1671 م) (خمس نسخ في الخزانة الملكية بالرباط) (من عدد 887 الى 6296) .

2) الجاحظ : (255 هـ / 869 م) .

فرج بن سلام القرطبي هو الذى دخل العراق ملقى الجاحظ واخذ عند كتاب « البيان والتبيين » وغير ذلك من مكتوباته ودخلها الاندلس (تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي - طبعة مجريط 1890 م / ص 286) .

وقد اختصر ابو بكر بن عاصم عبد الله بن حسين ابن ابراهيم (بن عاصم) القرطبي والي الشرطة (403 هـ / 1013 م) كتاب « البيان والتبيين » .

(الكلمة من 444 ، الفتح ج 4 من 231) .

ومن مظاهر اهتمام البايدية المغربية بكتب الادب العربى النادر او التى ربما نفتئت اليه في العالم العربى كتاب الجاحظ عن عليه في مكتبة (بُزُو) وهى مدينة سفرى في وسط المغرب وهذا الكتاب هو « كتاب البرمان والمرجان والعيان » .

وقد اصبح لقب (الاخنث) متداولا في الاوساط العلمية بالغرب والاندلس يطلق به كبار العلماء أمثال الشريف الادريسي ابو الحسن على بن محمد الاخنث النحوى المغربي (الذى كان حياً عام 452 هـ) (3) .

3) ارشاد الاريب ج 15 ص 57

(لقبه السيوطي بالمغربي في المزهر ج 2 ص 454 / بقية الوعاء ص 436) .

4) المتوفى عام 346 هـ - 957 م (العبر للذ مبى ج 2 ص 271) .

5) المتوفى عام 379 - 989 م (اليتبية للتعالبى ج 1 ص 409) (تاريخ بروكلمان ج 1 ص 140) .

(بقية الوعاء ص 34 - بقية المقتبس ص 56) (ابن الفرضي ص 383 - الشذرات ج 3 ص 94) .

(جدوة المقتبس ص 43) - (الوفيات ج 1 ص 514) .

6) توجد نسخة منه في مكتبة الاسكوريل عدد 197 .

الاجتهد — الى محاولة نقض كتاب مسيويه من نفث ثلاثة كتب هي :

- (1) المشرق في النحو .
 - (2) تنزيه القرآن عما لا يليق بالبيان .
 - (3) الرد على النحاة .

وقد لاحظ على سيبويه انه بنى علم النحو على
ان الكلمة ترفع وتنصب وتختضب بعامل ننان لم يكن
عامل ظاهر اولوه كما حاول الدلالة على ان الذى
يصنع الظواهر النحوية في الكلمات من رفع وتنصب
وجر انما هو المتكلم نفسه لا ما يزعمه النحاة من الافعال
وما شالكها وقد اشار (10) ابن جنی في «الخصائص»
إلى هذه النظرية ولكن ابن مضاء وسعها وأوضحها
وقد جر التأويل إلى علل واقيسة تكون أحياناً غير مقبولة
(كما لاحظ ذلك احمد أمين) والواقع أن ابن جنی هو
أول من انكر العامل فلاحظ أن فعل ضرب مثلاً انتهى
بمجرد النطق به فلا يمكن ان يكون ماماً في زيد او
عمره الخ ..

وهنا بدا الصراع يحتد حول «كتاب سيبويه»
مكان من جملة انصاره شخصان هما :
أولاً : أبو بكر الغريب محمد بن أحمد بن طاهر
الأشبيلي النافي .

ثانياً : ابن بلخت عيسى بن عبد العزيز الجزوئي المراكشي ثاماً الخدب مقدماً كان رئيس النحاة بال المغرب في عصره بلا مدانعة (11) وتد بذل جهداً مشكورةً في النداع عن «كتاب سيبويه» وأنه لم يغرضه وكان نداعه مخللاً بمخالطات قديمة بسطها تلبيذه أبو الحسن ابن خروف في شرحه لكتاب سيبويه وقد تلمذ له النحاة في الشرق حيث ناظر بمصر كبير النحاة عبد الله بن بري وكمير النحاة بدمشق أبا اليمن زيد بن الحسن الكتدي فحكم الحاضرون بأن أبا بكر الخدب أعرف من أبي اليمين بكتاب سيبويه وإن كان أبو اليمين أتبه نفساً وقد تصدع، الخدب النابلي، لتدريس الكتاب في البصرة

القرن الرابع من نهاة تقلديين ساروا على التهجّم مع
حفظ وضبط وتحقيق ومن بينهم بربرة مثل احمد بن
عبد العزيز بن مرح ابن ابي الحباب المصودي القرطبي
المتوفى عام 400 هـ / 1009 م وكان من جلة شيوخ
الادب واللغة .

وهكذا سار معظم النحاة على هذا المنهج
懋شاراهم الشرح والتمحيص كابن يوسف بن
بيقى مالح الحاكم فى المريدة الذى صنف كتاب
«المصباح» فى شرح أبيات الإيضاح للفارسي فى التحو
وكان الشرح ينصب أحياناً على «كتاب سيبويه» الذى
شفل الفكر باثارة الاعجاب تارة والتقد تارة أخرى
ومن هؤلاء ابن الركوب أبو بكر محمد بن مسعود الجياني
الذى وضع شرحاً للكتاب (7) كما شرحه ابن البارديشى
علي بن أحمد بن خلف الفرناطى (528هـ / 1133م) (8)
بالإضافة إلى شرح كل من أصول ابن السراج والإيضاح
لابن علي الفارسي الذى كان مدار شروح كثيرة منها
شرح ابن باق محمد بن حكم أبي جعفر السرقسطى
الذى، ولـ، الأحكام وأفتى، بилас (538هـ) (9).

وهنا ظهر نوع من التخصص افق و خاصة حول نكرة بذات تشنفلي بالتحاة في المغرب والاندلس بعد ان استسلموا ربيعا من الزمن لها وضعه سيبويه من توابعه و انماط وهذا المشكل هو مشكل العامل في الامراب حيث اقترب هذا الاتجاه باتجاه جديد عرفة الغرب الاسلامي وهو الاجتهاد الذي بذلت سماته الجذابة تعليم كل مناحي التفكير وخاصة في الاصول والخلاف العالى والفتنه والعقيدة وكان ذلك من ديوان الابداع الفلسفى والعلمى الذى انطلق من بلاط المرابطين والموحدين في مراكش الحمراء خلال القرن السادس حيث ظهر امثال ابن رشد و ابن طفيل وبين زهر وتساقويف البحث العلمي التجريبى بتبادل عدوتى البحر المتوسط الشمالية والجنوبية من قرطبة الى ماس ، ومكذا ظهر ابن مضاء احمد بن عبد الرحمن بن سعيد القرطبيى نعمد — استجلالية لرأى الموحدين المتزعمين لحركة

٧) طبع بالقاهرة أخيراً.

⁸ كتاب الصلة لابن بشكوال طبع مجريطج 1 م 20 (عام 1822).

٩) التوفى عام ٥٤٢ هـ - ١١٤٧ م (بفية الوعاء من ٤٢٤ - كشت الطبلون من ٢١٣ -

(10) ظهور الإسلام لأحمد أمين ج 3 ص 96 / ج 2 ص 118.

٦٥٠ مص ٥ لابن عبد الملك م التكملة الفيل والتوكمة

عاصمة النحاة ومن نهلل الخدب ان زعامته في النحو لم تغفه من امتهان حرفة الخياطة (12) لأن الاحتراف كان يدين العلماء بالمغرب والأندلس كما كان شنثنة كبار رجالات الفكر بالشرق (13) .

وكانت بعض قرى الاطلس البربرية مثل اغمس وتيقيل في هذا العصر مركزاً انتلقي منه بعض كبار النحاة مثل التينيلى عثمان بن سعيد بن عبد الرحمن بن احمد برتولو الذي سمع بمصر ودمشق (14) كما حفلت السهول بنحاة جهاده امثال سحنون عبد الرحمن ابن عبد الحليم بن عمران ابى القسم الاوسي الدكالى (نسبة الى دكالة) الملك المقرئ النحوي الذى كان اماماً ورعا (توفي عام 695 هـ - 1295 م) (15) ومن ابرز تلاميذه الشلوبين ابن عصفور على بن ابى الحسن بن مومن بن محمد الحضرمي الاشبيلي الذى سكن (انفا) (الدار البيضاء الحالية بالمغرب) ومراس وتونس حيث توفي عام 669 هـ (16) وكان خاتمة اقطاب النحاة (كما قال الشاعر : بدا النحو على وكذا ختم النحو ابن عصفور على) ، وقد شرح كتاب سيبويه .

ومما يبرز توة نشاط حركة البحث في مجال النحو في المغرب العربي في القرنين السادس والسابع انه لم يك ينشر كتاب المغرب لابن عصفور حتى تصدى له بلدية صاحب المقصورة حازم القرطجني ابن محمد بن حسن التونسي (المتوفى عام 684 هـ / 1285 م) (17)

(12) جذوة الاقتباس لابن القاضى ص 168 .

(13) راجع بحثنا حول العلماء المغاربة في مجلة «اللسان العرب» (المجلد العاشر) .

(14) توفي عام 605 هـ / 1208 م (درة الرجال ج 2 ص 419 طبعة الرياط 1354 هـ - 1936 م)

(15) «شفرات الذهب» ج 5 من 431 .

(16) قبل انه توفي عام 659 هـ / 1260 م «عنوان» الدرية من 188 «نوات» القيبات ج 2 من 93 .

- شفرات الذهب ج 5 من 330 - وفيات ابن تفت (ذكر انه توفي عام 667 هـ) - كشف الظنون من

1822 - بغية الوعاة من 357 - ملحق بروكلمان ج 1 ص 546 - ملة الصلة من 142 .

(17) راجع ترجمته في «تاريخ الدولتين» و«غية الوعاة» ورحلة ابن رشيد وله تصميدة في النحو .

(18) المتوفى عام 609 هـ / 1212 م (وذكر المغربي في النفح انه توفي بحلب عام 603 هـ او 605 هـ - الاعلام للمراكتى ج 7 من 12 (خ) وج 6 من 152 (خ) - جذوة الاقتباس من 307 - ابن خلكان ج 1 من 343 - نوات القيبات ج 2 من 79 - ارشاد الاربيب ج 5 من 420 (ذكر انه توفي عام 606 هـ) .

(19) المتوفى عام 680 - 1281 م «العلام للزركلى» ج 5 من 354 - «بغية الوعاة» من 154 / راجع ترجمة الخشنى في السلوة ج 3 من 291 - الذخيرة السننية من 44 - زاد المسائر من 105 .

(20) اركش بالأندلس توفي بمالقة عام 723 هـ - 1323 م «بغية الوعاة» من 80 - الدرر الكلمة ج 4 من 1 .

(21) اركش بالأندلس توفي بمالقة عام 723 هـ - 1323 م (بغية الوعاة من 80 - الدرر الكلمة ج 4 من 1) .

تواعد « الكتاب » وحتى في أوائل القرن الماضي بلغ هذا النوع من التفلسف مبلغاً حداً العلماء إلى تلقيب الملاسسة محمد بربيش (1316 هـ / 1898 م) (23) بسيبوبيه لمهارته الفائقة في النحو حفظاً وذوقاً . وإذا كانت الدراسات والابحاث التحوية قد ترکرت حول الزجاجي وأبن مالك وأبن اجرؤم فان بعض خلفهم كانوا أكثر تخصصاً كمحمد العطار المراكشي الذي كان أئمّى من ابن مالك (24) وقد اتسع نطاق هذه الشروح فشملت الشرق العربي وأقصى البلاد الإسلامية .

وهكذا استوحت الوشائج والصلات العربية بين شقيعروبة من خلال البصريين في أعمق مظاهرها وأعرق مجالها .

محمد بن محمد بن علي بن عبد الرزاق الغماري المصري (21) الذي انتهت إليه رئاسة علوم العربية في زمانه وتفرد على رأس المائة الثامنة في النحو حسب السيوطي في طبقاته وهو تلميذ أبي حيان لازمه ويرس بيت المقدس ومكة والاسكندرية .

والواقع ان العلماء النظار في النحو وغيره بدأوا يتلون في القرن الثامن كما لاحظ ذلك شاهد عيان هو ابن خلدون (22) فاتجهت النهم إلى التروع بدل الاصول وقل النزوع إلى الاجتهاد والإبداع او تفصيل ما اجمل في المدونات .

وكان التفلسف بكل كتاب سيبويه هو مدار التخصص في النحو فكان النحاة ينقدون كل انتاج جديد على ضوء

(21) توفي بالقاهرة عام 802 هـ - 1399 م (الضوء الالاعن ج 9 من 149 - شفرات الذهب ج 7 من 19 - نيل الابتهاج من 281 .

(22) راجع كتابنا « تطور الفكر واللغة في المغرب الحديث (من 143) حيث أبرزنا مظاهر الظاهرة والمشاركة والعمق عند علماء المغرب في هذا القرن في مختلف المجالات العلمية .

(23) من اعلام الفكر المعاصر ج 2 من 102 .

(24) الاعلام للمراكشي ج 5 من 49 .